كيفية العذاب
وهل العذاب على الجسد
أم على النفس والروح؟

عالم البرزخ عالم اختص بعلمه القرآن الكريم والسنة الشريفة دون غيرهما.

. . . مما أوردنا سابقاً من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة نستبين أن عذاب القبر واقع وهو حق لا شك في ذلك طالما أيدته الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة.

ووجود العذاب أو عدم وجوده لا تؤكده أو تنفيه إلا الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، وليس لنا من علم يؤكد أو ينفي سواهما، لأنه ومن لحظة الموت إلى يوم القيامة والجنة والنار فهو علم اللَّه سبحانه المطلق، فهذا الأمر علم إلٰهي غيبي، أخبرنا اللَّه سبحانه عنه وأخفى عنا كيفيته رحمة بنا، ولو شاء اللَّه تعالى لما أخبرنا وما أدرانا عن بعض هذا العلم الغيبي شيئاً وما أنزل القرآن الكريم الذي فيه هذا العلم.

يقول تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

[سورة يونس، الآيتان: ١٥، ١٦]

نفهم من هاتين الآيتين الكريمتين من سورة يونس، أن الإخبار عن الغيبيات من قبل اللَّه تعالى وحسب، والتي من جملتها عالم البرزخ الذي جاء في القرآن الكريم، ولو شاء اللَّه لما أنزل القرآن الكريم علينا ومن ثَم ما عَلِمَ أحد عن مثل هذه الغيبيات شيئاً. . لأن الإنسان مهما تعلَّم ومهما تطور ووصل إلى أعلى مستوى له فإنه يبقى قاصراً عن مثل هذه الأمور، لأنها فوق مستواه العقلي والفكري الدنيوي ولا يستطيع لها سبيلاً. فالروح والتي هي سبب الحياة وسبب الموت هي في علم اللَّه سبحانه اختصها لذاته العلي. يقول تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾.

[سورة الإسراء، الآية: ٨٥]

وهذه الآية إشارة عظيمة إلى أن الأمر بيد اللَّه حتى تقوم الساعة، أي إن الإنسان ومهما تطورت علومه عبر القرون القادمة فليس له من سبيل لمعرفة أمر الروح والحياة والممات بجهده الشخصي لأنها من أمر اللَّه وحده. فعالم البرزخ والذي نحن بصدد الحديث عنه يبقى في علم اللَّه تعالى، أخبرنا اللَّه سبحانه عنه لنستعد لهذا العالم الخفي وما فيه من أمر اللَّه، لأن النفس البشرية واردة إليه لا محالة، وطالما أننا واردون إليه لا نستطيع دفعاً له ولا إبعاداً، فلا بد من الاستعداد له ومعرفة بعض علم عنه من خلال ما أخبرنا اللَّه سبحانه عنه ورسوله الكريم ﷺ لأننا لا نملك علماً آخر يستطيع أن يعرفنا بعالم البرزخ.

. . . لذلك علينا أن نأخذ بما جاء به القرآن الكريم والسنة الشريفة فهما الحق في هذا العلم ولا مصدر آخر سواهما.

وكل قول أو رأي أو وهم أو تهويل ليس له أصل في كتاب اللَّه تعالى وسنة نبيه الكريم لا يؤخذ به ولا يعمل به والحديث عنه باطل.

كيفية العذاب:

اختلف العلماء في كيفية العذاب مع اتفاقهم على وجوبه وأنه واقع وحق.

ويبقى هذا السؤال المحير كيف هو هذا العذاب؟ أهو على جسد الميت؟ أم على نفسه وروحه؟؟

. . . يقول بعض المشككين: إنه لو شققنا القبر عن الميت الكافر أو العاصي بعد أيام، فإننا لا نرى على جسده أي آثار تدل على التعذيب أو الضرب فأين دلائل هذا العذاب؟ ورسول اللَّه ﷺ كما ورد في الحديث السابق يقول: «**لولا ألا تدافنوا لدعوت اللَّه أن يسمعكم عذاب القبر الذي أسمع**». ؟.

[رواه مسلم وأحمد والنسائي]

والجواب على هذا الاستفسار يكمن في القول:

لو أن العذاب كما نتصور واقع على الجسد ورأينا هذا بأعيننا بعد أن شققنا القبر على الكافر أو العاصي لكشف لنا الغيب ولسقط الابتلاء والامتحان الذي أوجبه اللَّه سبحانه علينا كما يقول تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾.

[سورة الملك، الآية: ٢]

وأول الامتحان هو امتحان الإيمان بالغيب.

يقول تعالى: ﴿الٓمٓ ۞ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۞ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

[سورة البقرة، الآيات: ١ ـ ٣]

فالإيمان بالغيب شرط للإيمان الصحيح الذي لا يشوبه شك

باللَّه سبحانه خالق الكون وما فيه، وما أعلمنا وما لا نعلم، ومن خلقه ما أظهره لنا ومنه ما أخفاه عنا وجعله غيباً وجعل له دلائل على وجوده كما جعل اللَّه لنا دلائل على وجوده كالنجوم والكواكب والأقمار والأرض وما فيها من بحار وجبال ووديان.

. . . ومن خلقه ما أخفاه عنا وجعله غيباً ولو أظهره لنا لاختلفت معايير سنة الوجود التي أرادها اللَّه سبحانه، ومنها خلقه للملائكة والجن فهما خلقان أخفيا عنا، وجعلهما اللَّه سبحانه من علم الغيب فأين هم الملائكة جنود اللَّه تعالى؟ الذين أخبرنا عنهم اللَّه تعالى بقوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾.

[سورة المدثر، الآية: ٣١]

أين هم وهم معنا وعن يميننا وشمالنا؟ كما يقول تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾.

[سورة ق، الآيتان: ١٧، ١٨]

وقوله تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾

[سورة الرعد، الآية: ١١]

معقبات: أي الملائكة.

أين هم ورسول اللَّه ﷺ يقول: ما من موضع شبر في السماء إلا وفيه ملك ساجد؟

. . . عن أنس رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ:

«أَطَّت السماء ويحق لها أن تئط والذي نفس محمد بيده ما فيها موضع شبر إلا وفيه جبهة ملك ساجد يسبح اللَّه بحمده».

[رواه ابن مردويه وأورده السيوطي في الجامع الصغير وقال: حديث صحيح وروى الترمذي نحوه بألفاظ مختلفة]

. . . ومن ثم أين الجن الذين هم بين ظهرانينا؟ وتحدث اللَّه سبحانه عن عالم الجن في آيات كثيرة وأفرد سورة من القرآن الكريم باسم (سورة الجن).

يقول تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾.

[سورة الأعراف، الآية: ٢٧]

ومما سبق نتبين أن عوالم كثيرة أخفيت عنا وهي من عالم الغيب، لأن اللَّه سبحانه لا يريد أن يؤمن الناس من خلال ما يظهر لهم من عالم الغيب، وإنما يريد أن يؤمنوا من خلال دلائل قدرته والتي وضعها بين أيديهم، مع وجود العقل البشري الذي يهتدي من خلال هذه الموجودات إلى اللَّه الواحد الأحد.

. . . إذاً ما المقصود من هذا الاستطراد في الحديث؟ . . . ويبقى السؤال عن كيفية العذاب في عالم البرزخ الذي ذكره القرآن الكريم وأيدته الأحاديث الشريفة؟

. . . والجواب أن العذاب واقع لا محالة وأخفي عنا عالم كيفيته كما أخفيت عنا عوالم كثيرة مما ذكرت عندما استطردت عن عالم الملائكة وعالم الجن، فالعذاب الواقع هو عذاب النفس والجسد وليس عذاب الجسد وحده الآيل إلى الفناء، ولعذاب النفس أشد ألماً بمرات كثيرة من عذاب الجسد. . إنه عذاب النفس التي يريها اللَّه سبحانه العذاب بقدرته غدواً وعشياً كما يري نفس المؤمن الصالح النعيم ويعرضه عليه في عالم البرزخ غدواً وعشياً.

. . . إنها قدرة اللَّه في العذاب، عذابِ النفس والذي هو أشد

بكثير من العذاب لو أوقعه اللَّه على الجسد وحده دون النفس.

والدلائل على أن العذاب عذاب النفس ما نسرده من الحقائق التي تتوافق مع العقل والنقل ولكن دون نفي عذاب الجسد الذي حققه أكثر العلماء، فاللَّه سبحانه قادر على أن يوصل العذاب إلى النفس والجسد دون أن نرى أي أثر للعذاب ولكن نفسر ونحلل بما ملكنا من علم قليل:

١ ـ الجسد الدنيوي إذا فارقته الروح عند الموت يصبح لا قيمة له من الناحية المادية لأن مادة الحياة لهذا الجسد هي الروح فإذا خرجت أصبح الجسم مادة آيلة إلى الفناء والتحول إلى تراب.. لكن يوم القيامة ينشئنا اللَّه سبحانه نشأة أخرى ولكن بذات النفس والروح.

يقول تعالى: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾

[سورة الواقعة، الآيتان: ٦١، ٦٢]

... ولا يبقى من هذا الجسد إلَّا عجب الذنب الذي تحدث عنه رسول اللَّه ﷺ وهو بقدر حبة الخردل وقال: ومنه تركب الخلائق يوم القيامة.

... عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ:

«كل ابن آدم يأكله التراب إلا عجب الذنب منه خلق ومنه يركَّب».

[رواه مسلم وأبو داود والنسائي]

٢ ـ الجسد إذا فارقته الروح فقد الإحساس بالألم حتى لو قطعته المناشير إرْباً إرْباً، ومعنى هذا أنه لا بد من إعادة الروح إلى الجسد حتى يحس الجسد بالعذاب الذي يعذب به في عالم البرزخ أو في القبر، وطالما أن الإنسان مات، فإن الروح لا تعاد إليه مطلقاً إلا عند سؤال الملكين وهذا يدل على أن الجسد يبقى

في القبر بلا روح وإذا بقي بلا روح فالجسد لا يحس بالعذاب كما أسلف.

٣ ـ العذاب الواقع على النفس أشد إيلاماً من العذاب الواقع على الجسد وفي حياتنا الدنيا ننال من عذاب النفس الشيء الكثير، وإذا وقع فإنه ألم شديد لا تحتمله النفس والروح. فلو أن رجلاً حكم عليه بالإعدام وهو في السجن والتنفيذ بعد شهر، فكم يصيب الإنسان وقتئذٍ من العذاب الأليم؟ علماً أن جسده خلال هذا الشهر سليم لم يمسه أذىً من ضرب أو تنكيل، فعذابه واقع لانتظاره ساعة تنفيذ حكم الإعدام، فيعيش عذاباً نفسياً أليماً لا يحتمله أبداً. ونستطيع أن نقول: إن انتظار العذاب أشد ألماً من وقوعه لأنه يحدث خوفاً ورعباً في النفس لا يطاقان.

٤ ـ لو قلنا: إن العذاب واقع على الجسد وكلنا يعلم بالدليل القطعي أن الإنسان سيؤول إلى عظام ثم إلى تراب بعد فترة وجيزة، فهل عذاب الكافر أو العاصي يقع فقط على مدة بقاء جسده في القبر ثم ينتهي عندما يؤول جسده إلى الفناء أي إن العذاب يطول مدة ثلاثين أو أربعين سنة ثم يتوقف. وهل توقف عذاب قوم نوح وعاد وثمود وفرعون الذين انتقم اللَّه سبحانه منهم أشد الانتقام بعد موتهم بثلاثين عاماً، بعد أن فنيت أجسادهم بعد موتهم، فهل هؤلاء أيضاً يتخلصون من العذاب لأن أجسادهم أصبحت تراباً؟

٥ ـ المصير الذي سيؤول إليه العبد يوم القيامة اللَّه سبحانه أعلم به ولذلك يكون العذاب في عالم البرزخ أو النعيم هو عرض هذا المصير على المؤمن الصالح أو على الميت الكافر والعاصي في كل يوم غدوة وعشياً في عالم البرزخ على النفس الباقية التي عادت إلى خالقها

لذلك قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾.

[سورة الفجر، الآيتان: ٢٧، ٢٨]

فاللَّه سبحانه خاطب النفس وأعادها إليه ولم يخاطب الجسد الفاني والذي لا عودة له، فلم يقل اللَّه سبحانه يا أيها الجسد ارجع إلى ربك راضياً مرضياً لأن هذا الجسد دنيوي انتهت مهمته بانتهاء حياة الإنسان على الأرض ويعاد كما أسلفنا القول يوم القيامة بنشأة أخرى اللَّه سبحانه أعلم بها ثم تعاد إليه نفسه وروحه.

٦ ـ مما تقدّم نستبين أن العذاب هو عذاب العرض ليعيش الكافر والعاصي خوفاً ورعباً إلى يوم البعث والنشور وهذا ما نستوضحه من الآية الكريمة. قال تعالى: ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾.

[سورة غافر، الآية: ٤٦]

أي أن مصيرهم النار التي تعرض عليهم في برزخهم في الغداة والعشي حتى يبعثهم اللَّه سبحانه يوم القيامة فيحاسبهم ثم يأمر بهم إلى نار جهنم خالدين فيها أبداً، وهو العذاب الأكبر الذي يطول الجسد والنفس معاً، ويقول رسول اللَّه ﷺ في هذا الأمر:

. . . عن ابن عمر رضي اللَّه عنهما قال: قال رسول اللَّه ﷺ:

« إذا مات أحدكم عُرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار يقال له: هذا مقعدك حتى يبعثك اللَّه إليه يوم القيامة ».

[رواه البخاري ومسلم]

٧ ـ لا يعذب اللَّه سبحانه أحداً من عباده عذاب الجسد والنفس إلا بعد محاسبته يوم القيامة وهذا من عدل اللَّه سبحانه المطلق. . .

وهل يحكم على الإنسان في الدنيا بالسجن المؤبد أو الإعدام أو الأشغال الشاقة إلا بعد عرضه على القاضي ومحاكمته؟ وإثبات التُهَمَة عليه بالأدلة القاطعة والقرائن الثابتة، فإذا كان هذا من الإنسان فكيف بأحكم الحاكمين وأعدل العادلين كما وصف نفسه! وقال: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

[سورة ق، الآية: ٢٩]

٨ ـ النوم أخو الموت كما وصفه رسول اللَّه ﷺ.

. . . عن جابر رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**النوم أخو الموت**».

[رواه البيهقي في شعب الإيمان]

وكذلك فإن الآيات الكريمة تدل على أن النوم موت مؤقت، فإذا نام الإنسان خرجت روحه منه فإذا استيقظ عادت إليه روحه وإذا قضى اللَّه الموت على النائم فلا يعيد إليه روحه.

يقول تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

[سورة الزمر، الآية: ٤٢]

ويؤكد اللَّه تعالى أن النوم هو الموت وأن اللَّه سبحانه يميتنا ويبعثنا في كل يوم:

يقول تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

[سورة الأنعام، الآية: ٦٠]

وعلى هذا فالنوم شبيه بعالم البرزخ، لذلك ترتحل الروح والنفس في النوم بقدرة خالقها إلى عوالم لا حصر لها، وتحقق أفعالاً لا يمكن للإنسان أن يفعلها في حياته الدنيا بالمطلقية، وهذا الارتحال هو عرض النفس في النوم الذي هو أخو الموت على تلك العوالم، وليس من أحد منا إلا وعاش هذه التجربة وعاش في حياته أحلاماً ورؤىً فيها من العذاب والآلام الشيء الكثير، وإذا ما استيقظ يحس أنه كان في حالة رعب وفزع شديدين لما رأى في نومه، علماً أن جسده ملقى على السرير لم يمسَّه أذىً، وعكس العذاب النعيم إذ يرى الإنسان أيضاً في نومه أنه يعيش نعيماً عظيماً وسعادة هنيَّة، وإذا ما استيقظ استيقظ مسروراً سعيداً يتمنى أن يعود مرة أخرى إلى النوم عله يستكمل حلمهُ وما كان فيه من النعيم، وكم شاهدنا أناساً نائمين وهم يتألمون ويصرخون فإذا ما استيقظوا تحدثوا عن رؤيا مفزعة وحلم مزعج رأوه في نومهم فأدى إلى هذا الشعور من الألم.

وهذا هو عرض العذاب أو النعيم على النائم من قبل اللَّه سبحانه ومن إرادته، لأن اللَّه سبحانه بيده ما ترى في نومك فإن شاء أراك ما تنعم به وإن شاء أراك ما تتعذب به، وهذا يشبه حالة العرض في عالم البرزخ.

يقول تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا﴾.

[سورة الإسراء، الآية: ٦٠]

وهذه الآية تدل أن الرؤيا بيد اللَّه سبحانه يري عبده ما يشاء... وعلى الرغم من تقدم العلوم هذا التقدم العظيم إلا أنهم لم يتوصلوا إلى تفسير كيف يرى الإنسان في نومه ما يرى... ولو اجتمع

الإنس والجن على أن يحددوا لك ما ستراه الليلة في نومك لما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

. . .مما تقدم نستبين أن العذاب هو في علم اللَّه سبحانه، ولن يكون بمستوى العقل البشري، بل طريقته فوق حدود وطاقات الفكر البشري، واللَّه العالم الخالق أعلم كيف يوصل العذاب أو النعيم إلى جسدِ ونفسِ الذي توفاه حتى يبعثه يوم القيامة، ليحقق له ما كان يعرض عليه في برزخه من العذاب أو النعيم بعد الحساب وإعلان الحكم الرباني عليه.